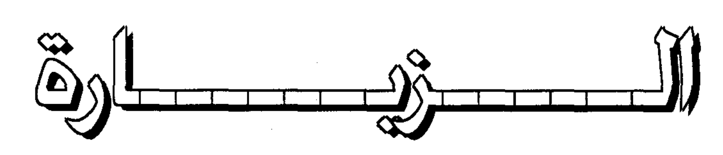


الزيارة

(إلى أبي، في مرضه)

شوقي بزيع



لم يكونوا كثيرين،
لكنّهم قَبْلَ أن أغلق النّومَ خلفي
وأرسبَ كالبئر تحت لحافي
تدلّوا بأصدائهم مثلَ حبلٍ
وصفّوا سِنيني أمامي.
لم يكونوا كثيرين،
كثّرهم أنّني مفردٌ بينهم،
وخرابي بدا من بعيدٍ كبرجٍ تهدَّم،
حتى إذا رنَّ فوقي نحاسُ الغياب
ارتدوني كمقبرةٍ من طواحين
وانتظروني هناك على التلِّ
حيث يغضّن سَرْوُ الصِّبا غابةً
من غشاوة عينيَّ
واختبأوا في ثيابي.
قلت: من أنتمُ؟
لم يجيبوا،
أَهَلْتُ سوادي عليَّ
وحاولتُ أن أختفي
كي أخيف الوحوشَ التي ضَوَّأَتْ
ليلهمْ،
كي أفي بالعهود التي قَطَعتْها الظِّلالُ
لراحة نفسي
وأخفيتُ عينيَّ عني
لكي يستتبَّ اكتمالاً ظلامي.
راوغوني قليلاً وعادوا
وكنتُ أنا بينهم،
حاملاً بيدي سنديانَ السماوات،
مُسْتنبحاً ما مضى من كلاب الفراغِ
الذي انقصفتْ ريحُهُ
فوق رأسي.
وقد هالني أنني كلما كنتُ أقطعُ
عاماً من العمرِ
يقطعني فأسهُ كالشَّجَرْ
حالمين بأن يجمعوا ما بدا من نثاري
على هيئةٍ،
لم يروا أنني لم أكن غير فزَّاعةٍ
للطيورِ التي نبشوا في الظلامِ
مناقيرَها،
والتراب الذي صرتُ فخّاره المتهرّئَ
فانتشروا كالضباب على جزعيَ المنهمرْ
صحتُ:
ـ ماذا تريدون مني؟
اعترافاً بأني خذلتُ الحياة
التي انبجستْ في دمي كالنوافيرِ،
أم عودةً عن ضلالٍ
تَمَرَّسْتُ في لعقِ حنظله المرِّ؟
ماذا تريدون من جثّةٍ ضاق بها نعشُها
فاستجارتْ بأنقاضها من صراخ البيوتِ
التي تتشمَّمُ أسمال جلدي
وتركضُ كالذئبِ
تحت عواء المطرْ؟
ما الذي تطلبون
ولا شيء في جعبتي غير جوعي
إلى ثدي تلك النجومِ
التي أرضعتْني حليبَ السماء القديم،
وغير اقتفائي
لما تركتْهُ المجرَّاتُ في سيرها
من أَثَرْ؟
ـ نريدُ الذي أفْرَغَتْهُ العبارةُ
كالقيءِ من لحمنا الحيّ،
قال الذي كان لي وجههُ ويداهُ وأقدامُهُ،
وحصَّتنا من عجين الحقولِ
التي رحت تُضرمُ في قشّها
خيبة المفردات،
ومن فضلات الرياح التي تتسلَّلُ
نحو صقيع يديكَ
كَوَخْزِ الإبرْ
ـ ولكنَّ ذاك الصبيَّ الذي تطلبونَ
اختفى في القصيدةِ،
قلتُ
وما ظل من جسمهِ ليس الا سراباً
لشخصٍ عَبَرْ...
وتناديتُ مع صورتي كالمآذنِ
أعليتُ حتى الجبال اضطرابَ
دمي المحتضرْ
لم أكن صاحياً لأفكّر بالموتِ
أو نائماً لأشدَّ على حلمي بالنواجذِ

بل كنتُ في البين بين،
وحيداً،
أعدُّ شفيراً لما يترنَّح مني
على قوس ذاك الممرْ
لحةً
وأضاءتْ أمامي الحياةُ
كما سُرُجٌ في الثرى
وأضاءوا مواجع أيَّامهمْ
قبل أن يرجعوا القهقرى
ويَدُلُّوا كنصبٍ من الذكرياتِ
على وحشتي
لم يكونوا بعيدين،
كانوا ضفافاً لنهرٍ مضى
لغيومٍ تراخى عليها إزارُ السماءِ
التي لم تصلني بمهدٍ
سوى لسعة الياسمينِ على وجنتيْ
وحدتي
بالهديل الذي يتنصَّت مثل الحمامِ
على صوت أمي
وقد شيَّعتها الحداءاتُ
حتى انبلاج الحنين على ضفتيْ تعبي
بأجنحة الخفقان الشديد لقلب أبي
وهو يبحث تحت الشرايين
عما يجنِّبه الضغط والسُّكَّري
وعما يقيني من الموتِ
مختنقاً بحبال الغبار
الذي تتكدَّس من تحته كُتُبي
ثم يكونوا بعيدين،
لكنهم، وقـد اقــترب الموتُ من
راحتيهم،
أتوا يستغيثون بي
ويدقُّون بابي بقبضة أصواتهمْ،
بمحاريثَ مصلوبةٍ فوق أُميَّة الطينِ،
أعلى من الانتظار العقيمِ

لأحجية العقل
وهو يربي أبالسة للجحيم الذي
يتصادى غدي مع خرائبه
دونما سبب.
وبدا لي دمي كوكباً في المحاقِ،
وأني تهدَّمتُ في لحظةٍ
وتكسَّـر ظَهْـرُ الجـدارِ الذي أسندتْ
فوقهُ
صُرَّةُ الروح أنقاضَها،
والكرومُ التي فارقتْها اللزوجةُ
غاضتْ على مقلتيَّ
وراحتُ تحوِّمُ حولي
بلا هُدُب
طاعناً في كهولة نفسي
أرى جسدي يعتلي كالجنازةِ أعضاءهُ
ويداي تمدَّان كفَّيْهما من ورائي
لكي تفقأا دُمَّلَ الذكرياتِ
الذي نزَّ كالطفحِ
من جلدِ ذاك الصبي
وبدا أن حلقي يجفُّ كفاكهةٍ في الرمال،
ووجهي بدا خائراً في مراياهُ
مثل بلادٍ تشيخُ
بعينيْ أبي.
يا أبي
لو أعود الى كَنَفِ الأرضِ
كي أتخفف من حمل هذا الزمان الثقيلِ
وأنزع عن كتفيَّ المهيضينِ
ناب الكلامِ المميتْ
لو أعودُ لأنْهَرَ عن شفة السنديان القديمِ
عناد العصافيرِ
وهي تفتِّش في عريهِ
عن مبيتْ
لن أكون جديراً بهذي الزيارةِ
ما لم يغتني دمي المتشقِّق مثل الحجارةِ

خلف الزجاج
ولكنني مقفلٌ كضريحٍ عميقِ النعاس
وقلبي يئنُّ على جانبيه الأصمَّيْنِ
من شدة الإرتجاجِ
قدماي تخونانني
وتبيعانني بثلاثين من فضَّةٍ
ليهوذا الظلام الذي يتربَّص بي
ويعانق جسمي
ليسلمني غدره كالنعاجِ
وها إنني موغلٌ في اقتراني
بأرملةِ الانتظار العجوزِ،
حدادي عظيمٌ
وعينا أكاليله شاهدايَ
وشكِّي المدبِّرُ
إشبينُ هذا الزواج
لم تكونوا ثقيلين ذاك المساء
ولم تطلبوا غير ما يطلب اليأسُ
من صرخة الاحتجاجِ
ولكنني لم أقف مرةً عند خط الحياةِ
الذي يبتني حوله الأسوياءُ
ورود اليقينْ
ولم أستطع، خلف ما يومئ الشوك،
أن أتلمَّس نبض العسلْ
لم أكن حيثما ينبغي
أن أكون تماماً،
كنتَ أكسل من أن أوازي المهبَّ
الذي بتدافعُ كالسهمِ
فردوسهُ المحتملْ
لم أكن مرةً حيثما ينبغي
دائماً كنت أكثر مما تزيِّن لي شهوتي
أو أقل
يا أ.. بـ.. ي
لا أ.. مـ.. ل

بيروت